١٦٥ - ٩٩

العلاقات الدولية

روسيا والاتحاد السوفيتي بالخليج العربي

د. مصطفى عبدالقادر النجار

مدير مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة

ان الباحث في تاريخ العلاقات الدولية في الخليج العربي يقف أمام صورة تكاد تكون غير واضحة لعلاقات غير متطورة حاولت روسيا القيصرية ومن ثم الاتحاد السوفيتي اقامتها مع أقطار الخليج العربي • الا أنها جوبهت بمعارضة الاحتكارات البريطانية وبالتالي الامريكية التي استولت على اقتصاد المنطقة بشكل عام •

ومع التسليم بأن حجم علاقات الروس مع أقطار الخليج العربي لايمكن مقارنته بحجم علاقات الانكليز والامريكان • الا أنها على صغر حجمها ـ حرية بالدرس وتسليط الضوء عليها • ذلك ان نمو تلك العلاقات معناه ـ في تقديرنا ـ تقهقر الاحتكارات الغربية وبالتالي خلق عامل توازن لا غنى لمنطقة الخليج العربي عنه اتجاه الوجود الانكلو ـ أمريكي •

هذا اضافة الى أن فتح الابواب لهذه القوة العالمية يعني ان الخليج العربي ـ ذا الاهمية الاقتصادية ـ قد تحرر اقتصاديا من استغلال العالم الرأسمالي وأخذت أقطاره تتعامل بحرية مع دول العالم وفقا لمصلحة شعوبها •

وعند توفرنا على دراسة تلك العلاقات اتضح لنا انها تمتد في اصولها الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر[1] • اذ أن الروس حاولوا الاندفاع الى منطقة الخليج العربي ـ في ذلك الوقت ـ وفي أذهانهم وصية امبراطورهم بطرس الاكبر التي جاء فيها : « توغلوا حتى تبلغوا سواحل الخليج (العربي) فتعيدوا الحياة الى الطرق التجارية القديمة مع الشرق الادنى »[2] •

ومن هنا جاء اهتمام الروس بفارس لمحاذاتها لهم ولكونها توصلهم الى الخليج العربي الذي سينشل روسيا من اختناقها وبعدها عن البحـــار الدافئة المفتوحة بعد أن فشلت في تحقيق ذلك الهدف في المضايق التركية •

وعليه استغل الروس حالتي الفوضى والانحلال اللتين دبتا في جسم الامبراطورية الفارسية فاستطاعوا أن يحتلوا مكانة مرموقة فيها • ومن ثم صاروا يخططون لتنفيذ هدفهم للوصول الى سواحل الخليج العربي •

وفي سبيل تحقيق تلك الغاية استعملوا أساليب عديدة منها « ارسال البعثات الروسية • ومنها تقديم مشروعات مد الخطوط الحديدية • ومنها قيام بعض قطعات الاسطول الروسي بزيارة بعض موانيء الخليج » •

وكان من أولى مبادرات استطلاع الاوضاع واختيار القاعدة البحرية أن نظمت موسكو جملة من البعثات صبغتها بألوان مختلفة « تفتيشـــية وتجارية وسياحية وغيرها » •

على ان أهمها كانت جولة كابتن فونبلومر Captain Vonblumer

---

(١) مما هو جدير بالذكر ان الصراع الروسي ـ البريطاني في منطقة الشرق الاوسط يمتد الى ابعد من هذا التاريخ • فقد كانت المنطقة مسرحا للصراع بان تسويات الحـدود العثمانية ـ الفارسية • وبان نشـوب مشكلتي هرات سنة ١٨٣٧ و١٨٥٦ •

(٢) Sir Percy Sykes, History of Persia, Vol. II. P. 254 (London 1951).

عام ١٨٨٧ في كل من أصفهان وشيراز وبوشهر • والتي أعقبتها جولة أخرى لضابط آخر في العام الثاني طالب بوضع حد للمصالح البريطانية في فارس • واقترح عقد اتفاقية روسية ـ فارسية • الامر الذي أثار غيظ بريطانيا وجعلها تتطرف في مراقبتها للاحداث[٣] •

ولكن الدبلوماسية الروسية مضت بخطى حثيثة في سبيل تنفيذ غايتها • وقد وضع الكونت دى وايت De Witte وزير المالية الروسية برامج اقتصادية واسعة بغية تنفيذها في فارس اعتقد ان الشروع بها سيضرب المصالح البريطانية في الصميم •

وتركزت برامج دي وايت على مشاريع بناء سكك الحديد • اذ اقترح مد خط سكة حديد من أحد موانىء بحر قزوين الى ميناء بندر عباس على الخليج العربي • وعلى فتح الطرق العامة وعلى مد أنابيب النفط •

وبالفعل أحست بريطانيا نتيجة تلك البرامج بخنق مشاريعها الاقتصادية التي كانت تنوي القيام بها في فارس •

ومما زاد من مخاوف بريطانيا ان روسيا دخلت في تحالف مع فرنسا سنة ١٨٩٢ • وقد حاولت روسيا ـ من خلال هذا التحالف ـ الاتصال بالمراكز الرئيسة في الخليج العربي التي ظلت بعيدة عنها لفترة من الزمن •

وقد استطاعت روسيا استعمال ميناء مسقط ـ الذي كانت لفرنسا صلات طيبة معه ـ وذلك لغرض تزويد السفن الروسية بالفحم الحجري •

على ان أهم المظاهر التي تركها ذلك التحالف على منطقة الخليج العربي هو المظاهرة الروسية الفرنسية البحرية الكبرى التي شهدتها المياه العثمانية في محاولة من فرنسا لمنع بريطانيا من فرض حمايتها على

---

(٣) لوريمر ـ دليل الخليج ـ القسم التاريخي ـ ج ١ ص ٤٥٢ •

عمـــان •

كما وصل عام ١٨٩٣ الطراد الروسي نوفكورود Nizhny - Novgorod الى عمان وقابل ضباطه البحريون الامام فيصل سلطان عمان من أجل اشعاره بمساندتهم له في مناوئته للانكليز[٤] • وعرضوا عليه عقد اتفاقية خاصة • الا أن السلطان ـ على مايبدو ـ لم يستجب للعرض خوفا من بريطانيا •

ولقد تكررت زيارة السفن الحربية الروسية لعمان بشكل لفت نظر الادميرالية البريطانية • وأوجست الخيفة من نتائجها •

كما نشطت البعثات الروسية فزار ضابط مهندس روسي جـــزيرة هرمز في ربيع سنة ١٨٩٥ حيث قام بمسح الجزيرة وصرح ان بلاده تنوي اقامة مخزن للفحم في هذه الجزيرة •

وفي العام التالي زار مجموعة من الاطباء ميناء بوشهر معلنين بأنهم قدموا لدراسة مرض الطاعون الذي انتشر في المنطقة • وصاروا يترددون على مينائي بندر عباس والبصرة • ولما كانت بريطانيا تعد الخليج منطقـــة نفوذ مغلقة لها فأنها أخذت تخطط لاجهاض كل الخطط الروسية الهادفة للحصول على قاعدة بحرية على سواحل الخليج العربي •

وتزعم اللورد كيرزون ـ نائب الملك في الهند ـ فكرة الاطاحـــة بالروس في الخليج العربي • وصرح في كتابه
Persia and the Persian Question

الذي نشره سنة ١٨٩٢ « بأن انشاء ميناء روسي على الخليج هو حلـــم الوطنيين المتحمسين من أهل الفولكا ولكن مثل هذا الميناء سيكون عنصـــر اضطراب في الخليج حتى في وقت السلم وسيفسد توازن القوى التي وضعته

(٤) Lutsky, Modern History of the Arab countries, P. 366 (Moscow 1969).

بريطانيا بعد مجهود شاق » • وأعلن بأن « أي وزير بريطاني يقبل التخلي لروسيا عن ميناء على ساحل الخليج خائن لبلاده »[٥] •

ولقد بالغ اللورد كيرزون كثيرا في « الخطر الروسي » على المصالح البريطانية في الخليج العربي • ولما كان هو على رأس حكومة الهند Indian Office لذا فان التقارير التي كانت تصدر عن هذه الحكومة جاءت متطرفة الى حد كبير[٦] •

وعند رجوعنا الى جملة من هذه الوثائق وجدنا انها تحتوي على مبالغات خيالية لا أساس لها في وصف « الخطر الروسي » بل ان بعضا من هذه الوثائق صورت الموقف وكأن بريطانيا على وشك فقدان نفوذها في منطقة الخليج العربي وبالتالي الهند درة تاجها الثمينة[٧] •

---

(٥) Curzon, Persia and the Persian Question, Vol. II. P. 465 (London 1892).

وقد خصص جزءاً كبيرا من الكتاب عن قلقه أزاء سعي روسيا لايجاد منفذ لها على الخليج •

(٦) من هذه التقارير على سبيل المثال :ـ

ـ ان فتح القنصلية الروسية في بغداد سنة ١٨٨١ هدفه مراقبة المصالح البريطانية في الخليج العربي •

ـ وان زيارة المندوب الروسي الى ميناء لنجة هدفها اقامة حامية روسية في جزيرة قشم لضرب الارجحية البريطانية •

ـ وان البعثة العلمية الفرنسية التي زارت عربستان في الربع الاخير من القرن التاسع عشر هدفها أخذ الملاحة النهرية في نهر كارون من بريطانيا •

(٧) F. O. 406/14, Government of India to Lord Hamilton (14 Feb. 1899), Sir O'coner to Marquess of salisbury (19 Feb. 1899). (25 Feb. 1899) (8 March 1899). (10 April 1899).

وقد انصبت معظم التقارير البريطانية على ان حصول روسيا على ميناء في الخليج العربي وتسلطها على جنوب فارس معناه تعريض التجـــــارة والمصالح البريطانية لخطر وبيل[٨] .

وعليه نوه كيرزون في مذكرة له الى موتيمر دوراند السفير البريطاني في طهران بوجوب تحرك بريطانيا لاغلاق أي طريق يوصل الروس الى الخليج العربي والمحيط الهنـدي[٩] .

الا أن روسيا ـ من جانبها ـ مضت في تنفيذ خطتها . ووضع الكونت فلاديمير كابنت أحد رجال الاعمال الروس مشروعا سنة ١٨٩٨ يهدف الى ربط الخليج العربي بالبحر المتوسط . اذ جعل الكويت نهاية لخط سكة حديد قادم من ميناء طرابلس السوري . الا أن السلطان عبدالحميـــــد أحال المشروع الى وزير الاشغال العمومية لدراسته . ولم يعط الـوزير جوابا محددا بسبب الملابسات المعقدة التي كانت تمر بها العلاقات بين الدولة العثمانية والشيخ مبارك .

وفي اعتقادنا ان ذلك المشروع هو الذي حفز بريطانيا للاسراع بعقد اتفاقية سنة ١٨٩٩ مع شيخ الكويت بعد أن كانت تتلكأ في اقرارها مـــن قبـــل[١٠] .

وقد كان اللورد كيرزون متحمسا لعقدها « خوفا من جعـل الكويت

---

(٨) Heruwitz, Diplomacy in the Near and Middle East. Vol. I, P. P. 319-320. (New York - 1956).

(٩) F. O. 60/681, Memorandum on the Persian Situation 12 April, 1896.

(١٠) وعليه نحن لا نتفق مع من أرجع عقـد المعاهدة الى الخطر الالماني .

محطة فحم روسية أو نهاية لخط حديد روسي »[١١] .

وقد أثارت قضية الكويت تناقضات كبيرة بين روسيا وبريطانيا وأبدت روسيا معارضة شديدة عندما أبدل العلم العثماني على مقر الشيخ مبارك بعلم جديد . واحتجت الصحافة الروسية على فرض بريطانيا حمايتها على الكويت[١٢] .

وفي القسطنطينية أشار السفير الروسي زينوفيوف Zinovyev على الباب العالي وجوب رفع الامر الى محكمة العدل الدولية في لاهاي .

وازاء ذلك الموقف فان الاستراتيجية الروسية وضعت برامج أكثر فاعلية لها . ونشطت الدبلوماسية الروسية في تنفيذها . وعليه فقد شهدت الفترة التالية نشاطا روسيا غير اعتيادي . أطلق عليه لوريمر تسمية «سلسلة من المظاهرات البحرية الروسية التي تستهدف أغراضا سياسية »[١٣] .

ويحدد لوريمر ظهور الطراد الروسي جيلاك Gilyak في الخليج العربي في ربيع ١٩٠٠ بداية لتلك السلسلة . وقد زار ذلك الطراد بندر عباس وبوشهر والبصرة والكويت والمحمرة حيث قابل فيها القنصل الروسي في بغداد .

ومن الجدير بالذكر ان السفن الحربية البريطانية كانت تتعقب الطراد الروسي في جميع الموانيء التي رسى فيها .

ويذكر المؤرخ السوفيتي لوتسكي ان الطرادات الروسية لم تقطع

---

(١١) Curzon, op. cit. P. 465.

(١٢) فرضت بريطانيا حمايتها على الكويت سنة ١٩٠٣ . وفي سنة ١٩٠٤ عينت الكابتن نوكس أول وكيل سياسي في الكويت راجع :
Philip Graves, The life of sir Percy Cox. P. 102. (London - 1941).

(١٣) لوريمر ـ المصدر السابق ص : ٥٠٧ .

بعدئذ من دخول مياه الخليج[١٤] .

ففي كانون الاول سنة ١٩٠١ ظهر الطراد فرياك Varyag في عدن ثم اتجه نحو مسقط حيث استقبله القنصل الفرنسي وتم تبادل الزيارات بين ضباطه والسلطان . ثم أكمل رحلته الى الكويت فبوشهر فلنجه فبندر عباس[١٥] .

وفي كانون الاول من العام التالي وصل الطراد اسكولد Askold الى مسقط وعند دخوله الى الخليج العربي صاحبه في جزء من جولته القنصل الروسي في البصرة المستر أداموف Adamoff وقد زار الطراد كلا من الكويت ولنجه وبندر عباس[١٦] .

وفي آذار سنة ١٩٠٣ وصل الطراد الروسي بوياريز Bogarin الى مسقط بصحبة الطراد الفرنسي انفيريت . وقابل ضباط الطرادين السلطان ثم واصلوا رحلتهم الى بوشهر التي استقبلهم فيها القنصل الروسي العام ثم الى الكويت فلنجه[١٧] .

ومن خلال دراسة زيارة تلك الطرادات للخليج العربي يمكننا أن نستنتج مدى التركيز الذي كانت تحظى به موانىء مسقط والكويت والمحمرة وبندر عباس ولنجه وبوشهر . ويبدو ان موسكو ألقت بكل ثقلها كي تفوز « بالقاعدة البحرية » من خلال حصولها على أحد تلك الموانى ..

فبالنسبة لمسقط أبدى الروس نشاطا ملحوظا في محاولة لتعيين قنصل

---

(١٤) Lutsky, op. cit. P. 356.

(١٥) F. O. 406/17, Consul Wratislaw to Sir O'Conor, 31 January - 1903.

(١٦) The previous correspondenre.

(١٧) The previous correspondenre.

روسي فيها ولكن حكومة الهند أصدرت تعليماتها للوكيل السياسي البريطاني في مسقط لمنع السلطان من قبول الاقتراح معللة ذلك بأسباب تجارية[١٨] .

أما فيما يخص الكويت فان روسيا لم يهدأ لها بال اثر عقد الشيخ مبارك معاهدة سنة ١٨٩٩ مع بريطانيا . وقد حاولت بمختلف الطرق أن تثني الشيخ مبارك عن سياسته الموالية لبريطانيا .

فقد عرض السير اومياتيكوف Omiatuikoff خدماته في أثناء زيارته للكويت على الشيخ مبارك مقابل حصول بلاده على امتياز ملاحي باسم روسيا غير أنه لم يحظ من الشيخ بنتيجة .

كما تباحث المقيم السياسي الروسي في بوشهر مع الشيخ مبارك في الجهرة في امكانية عقد معاهدة معه تكون أكثر ملاءمة لمصلحة الكويت من معاهدة سنة ١٨٩٩ . الا أن الشيخ رفض العرض محتجا بأن الاشراف الروسي على الواردات الكمركية الفارسية بوساطة الخبراء البلجيك قد أساء الى فارس وعربستان . ولا يريد أن يكون هو الآخر ضحية هذه الاساءة[١٩] .

ولكن روسيا لم تيأس وأخذت تتحين الفرص لاقناع الشيخ مبارك بالتعامل معها . وعندما حدثت الازمة بين الشيخ والسلطات العثمانية (سنة ١٩٠١) جرت اتصالات بين قنصل روسيا في بغداد والشيخ[٢٠] .

---

(١٨) لوريمر ـ المصدر السابق ص ٥٤٢ .

(١٩) انظر نص رسالة مفصلة عن مقابلة الشيخ مبارك مع المقيم السياسي في بوشهر في : حسين خلف الشيخ خزعل ـ تاريخ الكويت السياسي ج ٢ ص ١٣٣ ـ ١٣٤ (بيروت ـ ١٩٦٢) .

(٢٠) لوريمر ـ المصدر السابق ص ٥٥٦ .

وقد توجت تلك الاتصالات بزيارة قام بها وفد روسي ـ على ظهر الطراد فرياك ـ برئاسة قنصل روسيا في بغداد الى الكويت وقدم الوفد الى الشيخ مدالية روسية وهدايا •

كما قام الوفد الروسي بعدئذ بزيارة عبدالعزيز آل سعود • وحاول القنصل اقناع الامير النجدي بضرورة التعامل مع روسيا وعقد اتفاق بينهما• الا أن الامير أبدى ممانعة للاستجابة لطلب الروس •

هذا ولم يعرف للروس أي نشاط في البحرين سوى زيارة واحدة قام بها بعض العلماء الروس سنة ١٩٠٢ ولم تتكرر مثل هذه المحاولات بعدئذ(٢١) •

أما النشاط الروسي في عربستان فقد كان جزءا من سلسلة الحلقات التي حاولت روسيا أن تجرب عقدها • اذ اتصل القنصل الروسي العام في أصفهان بشيخ المحمرة وبذل جهدا لاستمالته وأبلغه أن روسيا تنوي أن تقيم لها ميناء على الخليج وتدخل في منافسة مع بريطانيا • لكن الشيخ خزعل ـ المعروف بولائه للانكليز ـ رفض الطلب •

ومن هنا جاء وقوف الروس سنة ١٩٠٢ مع فكرة اخضاع عوائد الشيخ الكمركية للادارة البلجيكية وقد استطاعت روسيا نتيجة ذلك أن تحصل من سلطات طهران على اذن بتعيين وكيل قنصل لها في الاحواز •

ومنذ ذلك الوقت لم تنفك روسيا في ممارسة شتى الاساليب من أجل النفاذ الى عربستان • وقد قامت بعثة روسية تجارية سنة ١٩٠٤ بزيارة المحمرة في محاولة لوضع أسس التبادل التجاري بين الشيخ وموسكو الا أن بريطانيا أحبطت مساعي تلك البعثة •

---

(٢١) المصدر نفسه ص ٥٥٠ •

وحاولت روسيا أن تنتقم لنفسها فضغطت على حكومة طهران لوضع جزء من عوائد اقليم « فارس والخليج العربي »[٢٢] تحت اشـــراف روسيا • وفاء لديون الشاه لسنة ١٩٠٠ ولكن بريطانيا هددت الشاه بأنها ستتخذ الخطوات الحازمة لحفظ مصالحها الامر الذي جعله يتردد في قبول الامـــر[٢٣] •

أما بالنسبة للساحل الشرقي للخليج العربي ـ الذي تسيطر عليـــه فارس ـ والذي تقع عليه موانىء بندر عباس ولنجة وبوشهر ، فكان نشاط الروس فيه يفوق نشاطهم في الساحل الغربي • وقد احتلت بندر عباس في كل هذا اهتماما خاصا من لدن السياسة الروسية • اذ وجد الروس أنها أفضل قاعدة يمكن أن تؤدي دورها لهم للاتصال بالبحار الدافئة •

وعليه فان روسيا رمت بثقلها لان تبرز « فكرة بطرس الاكبر » الى حيز التنفيذ وقد تكررت زيارات قطع الاسطول الروسي الى موانىء الساحل الشرقي[٢٤] • وعندما كانت بريطانيا تحتج على ذلك كان قنصل روسيا في أصفهان يرد بأن تلك الزيارات ليس لها أي طابع عسكري الا أن المقيـــم البريطاني في الخليج حذر حكومته من أن ذلك النشاط يخفي بـــين طياته التخطيط لاقتطاع بندر عباس من بريطانيا وتحويلها الى قاعـــدة روســـية[٢٥] •

ومما زاد من مخاوف بريطانيا ان ممثلية روسية فتحت في ذلك الوقت

---

(٢٢) اصطلاح يقصد به جنوب فارس الذي تدخل عربستان ضمنه •
(٢٣) المصدر نفسه ص ٥٦٨ •
(٢٤) Rolandshay, The life of Lord Curzon, Vol. II. P. 310.
(٢٥) I. O. Curzon to Hamilton, 22 April 1901 (Vol. XX).

في بوشهر وأسندت أمورها الى مقيم سياسي روسي ، وان اتفاقا تجاريا سريا قد عقد بين روسيا وفارس يتضمن تخفيض الرسوم الكمركية على صادرات روسيا الى فارس • وتعهدت روسيا بالاشراف على تنظيم شؤون الكمارك الفارسية التي عهدت بها الى أخصائيين من بلجيكا •

ويمكن القول ان الشاه في تلك الفترة رمى بنفسه في أحضان روسيا كليا نتيجة انهيار فارس الاقتصادي •

ومن هنا جاء تقرير براون Browne أحد المتخصصين في الشؤون الفارسية – بأن فارس أصبحت تحت حماية روسيا المادية والادبية(٢٦) •

وهكذا اشتدت حدة المنافسة بين روسيا وبريطانيا وتحولت فارس الى ميدان للصراع وتشعب التنافس وخاصة في مجال الاقتصاد حتى اذا ماحصلت احدى الدولتين على امتياز سعت الاخرى للحصول على امتياز مماثل • أو قامت بالضغط على حكومة الشاه لالغاء الامتياز الاول •

وقامت في بريطانيا معارضة شديدة لفكرة روسيا في ضم بندر عباس الى مناطق نفوذها • وتزعم اللورد هملتون – وزير الهند – حركة المعارضة • وأكد جميع المسؤولين البريطانيين ان بندر عباس ميناء بريطاني منذ دخول شركة الهند الشرقية مياه الخليج(٢٧) •

كما ان كيرزون كان قد أفصح الى هملتون بأنه لايمكن تقسيم الخليج بين بريطانيا وروسيا بأي حال من الاحوال • وان موانىء بندر عباس

---

(٢٦) Browne, The Persian Revolution of 1905-1909, P. P. 102-103. (London - 1910).

(٢٧) Richard Temple, The strategic Relation of Persianto British Interests, Journal of Royal United Service Institution (3 May - 1899) p. 742.

ولنجة والمحمرة يجب أن تبقى بريطانية[٢٨] .

وعليه فان الساسة الانكليز أخذوا يرسمون الخطط لمواجهة «الخطر الروسي» ودرسوا الاحتمالات المختلفة في حالة نشوب حرب مع روسيا. وتقرر بشكل نهائي ارسال الاسطول البريطاني المرابط في المحيط الهندي الى موانىء الساحل الشرقي ليكون على أهبة الاستعداد لضرب تلك الموانىء وقطع الطريق على روسيا في حصولها على منفذ الى الخليج العربي[٢٩] .

ولقد وضعت عدة مؤلفات لدراسة المنافسة الروسية ـ البريطانية في منطقة الخليج العربي وكان أولها « كتابات رولنسن Rowlinson السفير البريطاني في طهران ، حيث وضع مؤلفا بعنوان :[٣٠] « England and Russia in the East » غطى فيه دوافع الزحف الروسي الى منطقة الخليج العربي عندما كان مجرد فكرة .

وقد أكمل ماهان Mahan ـ سياسي أمريكي ـ ما بدأه رولنسن في البحث الذي نشره في بداية القرن العشرين بعنوان[٣١]

The Persian Gulf and International Relations.

كما أكمله ببحث آخر بعنوان :[٣٢]

Problem of Asia and Its effect upon International Politics.

وفسر ماهان في بحثيه استمرار زيادة النفوذ الروسي في فارس بأنه فتح الباب أمام روسيا للنفاذ الى الخليج وبالتالي فان بريطانيا ستفقد

---

(٢٨) I. O., Curzon to Hamilton, 4 January 1900 (Vol. XVI).

(٢٩) Bell, Highway of Nations, Journal of the Royal United Service Institution - Vol. Xliii (1899).

(٣٠) (London - 1895).

(٣١) National Review (Vol. XI) P. P. 27-54 (1902).

(٣٢) (London - 1903).

تفوذها لحساب روسيا • لا سيما وان هدف روسيا هدف اقتصادي يرمي الى ربط البحر المتوسط بالخليج العربي عن طريق اقامة سكة حديد • وأشار على بريطانيا بأن تتبع مع فارس السياسة التي سبق وأن اتبعتها مع الدولة العثمانية سنة ١٨٧٨ •

أما الذي يفسر لنا ارتباك السياسة البريطانية في فارس فهو ان الدبلوماسية البريطانية كانت تعتمد على وجهات نظر مختلفة وقد نشب خلاف بين الحكومة البريطانية وحكومة الهند حول تولي مسؤولية العلاقات الدبلوماسية مع فارس • واتفق ان تكون العلاقات الدبلوماسية من اختصاص وزارة الخارجية البريطانية وأن تتعهد حكومة الهند بتكاليف مقتضيات البعثة الدبلوماسية في فارس •

ومن نقطة الضعف هذه استطاعت روسيا أن تنشط في الخليج العربي وكان مشروع اقامة خط ملاحي ثابت لها هو الشغل الشاغل لها للمسؤولين الروس في موسكو وهو المشروع الذي جوبه بمحاولات بريطانيا لوأده وهو في المهد •

وفي سبيل تنفيذ المشروع الروسي كان قد بدأ اوميياتيكوف Omiatuikoff وبيلنبرج Pellenberg جولتهما في موانىء الخليج وقرر اومياتيكوف في تقرير قدمه الى دي‌وايت بأن هناك مجالا واسعا لانشاء خط بحري تجاري دائم بين موانىء الخليج العربي والموانىء الروسية كما تضمن تقريره اقتراحاً بتأسيس مصرف تجاري في بندر عباس • ومرابطة طراد حربي عند سواحلها • واقامة محطة فحم في بوشهر أو البصرة وفتح قنصلية في بوشهر •

وقد شكلت لجنة خاصة لدراسة تلك المقترحات فأقرت اللجنة أن يعهد الى شركة البحر الاسود الروسية للملاحة التجارية تسيير خط

ملاحي ثابت بين موانىء أوديسيا والبصرة وبوشهر .

وتنفيذا لذلك القرار بدأت الباخرة (كورميلوف) رحلتها التجارية الاولى في آذار سنة ١٩٠١ الى جاسك وبندر عباس ولنجة وبوشهر والبصرة حيث أفرغت بضائعها المختلفة في تلك الموانىء .

ثم أعقبت تلك الرحلة رحلات أخرى قامت بها السفن (سيجريد) و (آزوف) و (نزووفر) . وتضمن الخط الملاحي الروسي نقل البضائع والمسافرين مابين موانىء البحر الاسود وموانىء الشام والخليج العربي .

واستمرت الشركة منذ سنة ١٩٠٣ ترسل أربعة سفن كل سنة وفتحت في بوشهر مركزا رئيسا لها في الخليج العربي لادارة شؤون الملاحة وعهدت ادارته الى مستر بافلوف Pavloff وفتحت وكالات مساعدة في كل من مسقط وجاسك وبندر عباس ولنجة والمحمرة والبصرة.

وفي أواخر سنة ١٩٠٣ اتخذت الخطوات لاقامة معارض تجارية في بوشهر والبصرة للصناعات والمنتجات الروسية(٣٣) .

وتنفيذا لمقترحات اومياتيكوف اتخذ قرار بوضع سفينة حربية بشكل دائم في منطقة الخليج العربي وقد بدأت عملها باسنادها عملية الانزال الفارسي في جزيرة أبو موسى سنة ١٩٠٣ ومن المؤكد ان الدافع لذلك كان للاضرار بالوجود البريطاني في الخليج العربي(٣٤) .

كما أرسلت في آب ١٩٠٤ بعثة تجارية روسية الى الخليج العربي هدفها انشاء مصرف تجاري روسي في بوشهر وآخر في شيراز .

واضافة الى هذا وذاك أولى الروس اهتماما ملحوظا لتحسين الجهاز

---

(٣٣) للوقوف على تفاصيل الملاحة الروسية في الخليج العربي راجع : لوريمر – المصدر السابق ص. ص. ٥٠١ – ٥٢١ .

(٣٤) الدكتور لؤي بحري – الاطماع الاجنبية في جزيرة أبو موسى ص ٢٣ (بغداد – ١٩٧١) .

القنصلي الروسي الموجود في منطقة الخليج العربي والاقطار المتاخمة لـه •

فبالاضافة الى فتح قنصلية روسية عامة في بوشهر عام ١٩٠١ فتحت في بندر عباس وكالة قنصلية سنة ١٩٠٤ رفعت في العام التالي الى قنصلية بعد أن فتحت وكالة قنصلية أخرى في لنجة •

لكن على الرغم من جميع الجهود التي بذلها الروس في هذا الباب الا أنهم لم يستطيعوا الحصول على أية أرجحية في الخليج العربي • وظلت اتصالاتهم بأقطاره محدودة وتراوح في مكانها • ولم يؤد النشاط الذي بذل خلال السنوات الماضية الى أية نتيجة تذكر •

وحتى في الفترات المحرجة التي مرت بها بريطانيا في منطقة الخليج العربي ابان حرب البوير (١٨٩٩ - ١٩٠٢) لم تحقق روسيا الهدف الذي كانت تسعى اليه في وقت مرت العسكرية البريطانية في الخليج العربي بمواقف ضعف ملحوظة بعد سحبها لمعظم قطعاتها للمشاركة في حرب جنوب أفريقيا(٣٥) •

هذا اضافة الى تهيؤ الجو لها ابان حكم الشاه مظفرالدين (١٨٩٦-١٩٠٧) الذي كان واقعا تحت تأثير الروس الكامل •

ومن هنا يمكن تفنيد المبالغات البريطانية التي صورت ان روسيا ستحول الخليج العربي الى بركة روسية اذا ماسنحت الفرصة لها •

أما الذي يفسر لنا عدم اقحام روسيا لقواتها في الخليج العربي فيرجع في اعتقادنا الى أن الاساطيل الروسية كانت موزعة بين بحار

(٣٥) للتفاصيل عن القوات البريطانية راجع : الدكتور نوري السامرائي - موقف المجتمع البريطاني من حرب جنوب افريقيا - رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى كلية التاريخ بجامعة موسكو سنة ١٩٦٤ •

البلطيق والاسود والصين وهي بعيدة عن الخليج العربي • فليس من مصلحة الروس والحالة هذه عزل قطعاتهم البحرية عن مراكزها الرئيسة ووضعها تحت رحمة الاسطول البريطاني الذي لا تضاهيه أية قوة في تلك المياه •

واضافة الى هذا ان روسيا كانت تمر في أزمة خانقة مع اليابان انتهت بحرب ضروس سنة ١٩٠٥ وكلفت روسيا خسارة لم تكن في حسبانها اذ قضت الحرب على معظم قطعات الاسطول الروسي • وبذلك تبدد الكثير من آمال روسيا التي عقدتها في الخليج العربي •

كما اننا اذا استقصينا العوامل التي أرغمت بريطانيا على عدم التدخل العسكري في الخليج العربي ازاء النشاط الروسي نجد انها تكمن في أن بريطانيا كانت تخشى مثل هذا التدخل لتحالف روسيا مع فرنسا من جهة ولتعقد الموقف بينها وبين الدولة العثمانية بسبب ازمة الكويت من جهة ثانية • ولسياسة الدولة العثمانية المنحازة الى ألمانيا وما يخلفه ذلك الانحياز من نتائج على بريطانيا عند حدوث أية أزمة من جهة ثالثة •

وعليه فان عدوتي الامس حاولتا تصفية خلافاتهما لمواجهة الموقف الجديد الذي استحدث في المنطقة • وقد ظهرت بوادر الزحف الالماني – المتمثل في خط حديد بغداد – برلين – وهو يهدد المصالح البريطانية والروسية على حد سواء[٣٦] •

وكان من نتيجة تلك التصفية الوفاق الانكليزي – الروسي سنة ١٩٠٧ الذي سوى الخلافات القائمة بين الدولتين • وقد قسم فارس – بموجب الخرائط الملحقة – الى منطقتي نفوذ شمالية من نصيب

(٣٦) Taylor, The Struggle for Mastery in Europe 1848-1918, P. P. 443-444 (Oxford - 1967).

روسيا وجنوبية من نصيب بريطانيا كما اتفق على جعل المنطقة الوسطى منطقة حيـــاد •

وعلى الرغم من أن هذا الاتفاق جاء نصرا للسياسة البريطانيـــة في المنطقة • الا أنه جوبه بمعارضة حادة من بعض رجالات بريطانيا وعـلى رأسهم اللورد كيرزون الذي رفض فكرة التقسيم(٣٧) •

وبموجب هذا الاتفاق اعترفت روسيا بمنطقة الخليج العربي منطقة نفوذ بريطانية بلا منازع • كما اعترفت بالافضلية الانكليزية في جنـوب فارس وعربستان وبهذا تخلصت بريطانيا من مزاحمة الروس لها للوصول الى سواحل الخليج العربي(٣٨) •

والواقع ان روسيا بتوقيعها على ذلك الاتفاق تراجعت عن قرارهـا عام ١٩٠٢ في جعل اقليم « فارس والخليج العربي » تحت اشـــرافها • واعترفت لبريطانيا بأفضليتها فيه ولم تتطرق الى الخليج العربي اذ عدته واقعا ضمنا في دائرة الحماية البريطانية • وهي بهذا تعد أول دولـــة أوربية تعترف لبريطانيا بهذا الحق(٣٩) •

ومن هنا جاءت معارضة بعض رجالات روسية لذلك الاتفاق وأخذوا يندون به لاسيما وان الاتفاق أقر لبريطانيا اضافة الى الامتيازات الاخرى

---

(٣٧) Curzon, Russia in Central Asia in 1859 and the Anglo Russian question P. 378 (London - 1889).

(٣٨) أقرت ذلك الاعتراف مذكـرة قدمتهـا الحكومة الروسية الى السفير البريطاني في بطرسبرك مقابل تعهد بريطانيا بالمحافظة على الوضع الراهن في الخليج وعدم التعرض الى تجارة أي دولة أخرى •

(٣٩) Graves, op. cit. P. 130.

ـ امتياز دارسي للنفط في امارة عربستان[٤٠] .

ومهما يكن من أمر فان روسيا اتجهت بعد الاتفاق الى مناوءة ألمانيا فعارضتها في مشروعها لسكة الحديد واستمرت المعارضة قائمة حتى سنة ١٩١١ حينما توصل امبراطور ألمانيا الى اتفاق مع قيصر روسيا يقضي بوجوب سحب روسيا معارضتها مشروع سكة حديد بغداد ـ برلين مقابل تعهد ألمانيا بسحب معارضتها للمشاريع الروسية في فارس اضافة الى تركها مشروع سكة حديد بغداد المتجهة شرق خانقين الى فارس[٤١] .

وعليه فاننا نجد ان روسيا لم يلزمها اتفاق سنة ١٩٠٧ بمفاوضة ألمانيا الا أن عدم الالتزام هذا لم يؤثر بشكل عام على التحالف المعقود بين روسيا وبريطانيا . فعندما قامت الحرب العالمية الاولى كانت روسيا تحارب الى جانب بريطانيا وقد وصلت الجيوش الروسية الى حدود العراق في خانقين[٤٢] . كما تشكلت قوات مشتركة روسية ـ بريطانية لتجوب فارس في محاولة لمنع دخول الالمان من الجهة الشرقية .

ولقد غيرت الحرب العالمية ميزان القوى في المنطقة وقبل انتهائها كان قد قام في روسيا نظام جديد اثر تفجر ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ فأظهر قادة الثورة الجدد معارضتهم الكاملة للسياسة التي كان ينتهجها رجال

---

(٤٠) للوقوف على التفاصيل أنظر كتابنا ـ التاريخ السياسي لامارة عربستان العربية (القاهرة ـ ١٩٧١) .

(٤١) Friedrich Kochwassar, Kuwait - Geschichte, Wesen Und. Funktion Eines Modernen Arabischen Stoates (Stuttgart - 1969).

(٤٢) للتفاصيل راجع : شكري محمود نديم ـ الجيش الروسي في حرب العراق ١٩١٤ ـ ١٩١٧ (بغداد ـ ١٩٦٧) .

العهد القديم في موسكو • وأعلنوا تخليهم عن كل ماحصل عليه القياصرة من مناطق نفوذ في العالم بما فيها منطقة الخليج العربي •

وعليه فان سياسة موسكو في الفترة التالية لم يكن لها أية علاقة بسياسة روسيا القيصرية على الرغم من أنها وريثة حكمها •

وصار السوفييت ينسقون سياستهم في المنطقة وفقا للمبادىء الجديدة التي نادوا بها وأعلنوا أنهم يتعاملون مع دولها وفقا لمصلحة شعوبها • وقد حرزوا ـ بوساطة ذلك ـ خلال العشرينات وبداية الثلاثينات تقدما كبيرا في علاقاتهم مع أقطار الخليج العربي •

فتنازل الاتحاد السوفييتي عن جميع الامتيازات التي كانت لروسيا في فارس بموجب معاهدة عقدها مع الشاه سنة ١٩٢١ شريطة أن لا تمنح تلك الامتيازات الى أية دولة أجنبية(٤٣) •

ويقرر والتر لاكور(٤٤) Walter Laquear ـ الخبير الدولي بشؤون الشرق الاوسط ـ أنه عندما تبوأ رضا شاه كرسي الحكم فوجىء السوفييت مفاجأة سارة نظرا للاعتقاد السائد بأنه يرأس حركة وطنية ثورية • وخيل لهم ان الدكتاتورية العسكرية ستكون مرحلة انتقالية نحو نظام جمهوري قومي •

وشهدت العلاقات بين طهران وموسكو تطورا محسوسا • وقد ساند السوفييت رضا شاه في خطته الرامية لتقويض حكم الشيخ خزعل في عربستان سنة ١٩٢٥ بوصف ان الشيخ خزعل أحد رجالات بريطانيا •

---

(٤٣) Lenczowski, Russia and the War in Iran. P. 318 (New York - 1949).

(٤٤) في كتابه : The Soviet Union and Middle East.

ويؤكد رضا شاه في مذكراته ذلك فيذكر ان القنصل السوفيتي في عربستان نقل له تهاني السوفيت على الحاقه عربستان بحكمه المركزي[٤٥] • ويضيف الى أن السوفيت كانوا مبتهجين « قلبا وقالبا » وكانت صحفهم واذاعاتهم ماضية في نشر أخبار انتصار الجيوش الفارسية• وكان الشعب السوفييتي يتلقى أنباء تقلص ظل الانكليز في عربستان بفرح وشغف[٤٦] •

ولكن رضا شاه رغم هذا التأييد فانه فسره بتكتيك يستعمله السوفيت للكسب من وراء خلافاته مع بريطانيا[٤٧]

والواقع انه لم تكن هناك أرجحية لبريطانيا في فارس على الاتحاد السوفيتي ولا العكس في عهد رضا شاه • وانما كان يتعامل مع الدولتين على حد سواء • وذكر « بأن فارس بالنسبة لهما تعد دولة صديقة بكل معنى الكلمة »[٤٨] •

ولم ينحصر تعامل السوفيت مع فارس فقط وانما تعداه الى أقطار الخليج العربي والجزيرة العربية •

وقد اعتمدوا لهم قنصلا في جدة منذ عام ١٩٢٤ لدى الشريف حسين ولكن عندما قامت مملكة الحجاز وسلطنة نجد وملحقاتها[٤٩] في كانون

---

(٤٥) مذكرات رضا شاه ـ ترجمة علي البصري ص ـ ١٩١ (بغداد ـ ١٩٥٠) •

(٤٦) المصدر نفسه •

(٤٧) المصدر نفسه ويمكن الرجوع اليه في تفاصيل آراء رضا شاه عن ذلك •

(٤٨) المصدر نفسه ص ١٩٢ •

(٤٩) ابدل اسمها عام ١٩٣٢ الى المملكة العربية السعودية •

الثاني سنة ١٩٢٦ كان الاتحاد السوفيتي أول دولة أجنبية تعترف بالنظام الجديد وطرد الهاشميين من الحجاز بوصف ان النظام الهاشمي يستند في وجوده الى الانكليز أولا وآخرا • وان ابن سعود اقل خضوعا من الهاشميين للنفوذ البريطاني •

وبهذا يكون الاتحاد السوفييتي قد سبق كلا من بريطانيا والولايات المتحدة في اقامة علاقات سياسية مع ابن سعود • فمن المعروف انالتمثيل السياسي معالولايات المتحدة وبريطانيا قد تأخر في ذلك •

وقد تبادل قنصل الاتحاد السوفيتي العام في جدة كريم حكيموف نص الاعتراف في ١٦ شباط سنة ١٩٢٦[٥٠] •

وجاء فيه « انطلاقا من مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها واحتراما لارادة الشعب الحجازي التي تجلت في اختياركم ملكا عليه • تعترف بجلالتكم ملكا على الحجاز وسلطانا لنجد وملحقاتها »[٥١] •

وعقدت موسكو آمالا كبيرة على ابن سعود وكانت ترجو أن يتحول الى « بسمارك العرب » ولذلك ظل السوفييت على علاقات طيبة معه في الفترة التالية • وقد أرسل وزير الخارجية السوفييتية تشيشرين هدايا تذكارية الى ابن سعود في نيسان سنة ١٩٢٦ ووجه دعوة الى الامير فيصل وزير الخارجية لزيارة موسكو •

وعندما تأخر وصول فيصل أرسل رئيس جمهوريات الاتحاد السوفييتي كالنين في مايس ١٩٢٧ الى ابن سعود يستوضحه فيها السبب

---

(٥٠) بعد ثلاثة أسابيع فقط من اعلان المرسوم الملكي بقيام مملكة الحجاز •

(٥١) أمين سعيد ـ تاريخ الدولة السعودية ـ المجلد الثاني ص ٢٠٤ ـ نقلا عن الروسية من كتاب (الوثائق الرسمية للدولة) ـ (بيروت ـ دار الكتاب العربي) •

ويبارك الصداقة بين شعوب الاتحاد السوفيتي والشعب العربي[٥٢] .

وقد تمخضت تلك الصداقة عن موافقة ابن سعود على تسيير خط ملاحي سوفيتي في البحر الاحمر لخدمة أغراض الحج . وافتتح فرع للشركة التركية الروسية في جدة .

وبغية وضع الاسس السليمة لتعامل الاتحاد السوفيتي مع دول الشرق الاوسط وبضمنها الخليج العربي عقد المؤتمر السادس للكومنترن سنة ١٩٢٨ حيث تقرر فيه ان تلك المناطق تتصف بالتخلف والتأخر الاقتصادي والاجتماعي . وهي خاضعة بشكل مباشر أو غير مباشر للنفوذ البريطاني الذي يمثل رأس الاستعمار في العالم . وعليه فانها ليست معدة اعدادا كافيا لنشر المبادىء الماركسية . وازاء هذا الموقف الصعب الذي لايسمح بالتوغل فانه من الممكن اقامة علاقات تجارية مع الاقطار المستعدة لذلك .

وبذلك بدأ الاتحاد السوفيتي ما اطلق عليه لقب « العهد الثالث » الذي واجهت موسكو به الشرق .

وكانت اليمن احدى الاقطار التي اتجهت أنظار الاتحاد السوفيتي اليها فاستطاع ان يتوصل مع الامام يحيى (١٩٠٤ ـ ١٩٤٨) لعقد معاهدة صنعاء في الاول من تشرين الثاني سنة ١٩٢٨[٥٣] .

وتحمل هذه المعاهدة طابع التودد والتعاطف وتشير في مقدمتها الى انها بداية لعلاقات أقوى وأعمق وتنص المعاهدة التي تتألف من خمس

---

(٥٢) راجع نص الرسالة في المصدر نفسه . ص. ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

(٥٣) Survey of International Affairs: Royal Institute of International Affairs, Year - 1930, Vol. P. P. 170-171.

مواد وخاتمة الى جانب الاعتراف باستقلال اليمن على تنظيم العلاقات التجارية بين البلدين وعلى ترتيب اقامة رعايا كل منهما في بلد الآخر (٥٤) •

والثابت ان دوافع الامام من عقدها كانت لمجابهة الضغط الانكليزي عليه حيث ان عقدها أتاح له الشعور بالقوة • ويقرر البعض ان حاجة الامام الى قوة أجنبية تساعده في مقاومته لانكلترة هي التي كانت وراء عقده المعاهدة(٥٥) •

وكان رد الفعل البريطاني قويا • وقد أخذ سلاح الجو البريطاني يضرب قوات الامام لاخراجها من المحميات • ذلك ان اليمن تعد أول قطر عربي يجرؤ على عقد معاهدة مع السوفييت في هذا الوقت المبكر جدا بالنسبة لبلدان الشرق الاوسط في وقت كانت المنطقة العربية بكاملها واقعة تحت النفوذين البريطاني والفرنسي •

وقد حقق الامام من وراء هذه المعاهدة أغراضه السياسية والاقتصادية فاعترف الاتحاد السوفيتي به وباستقلاله • كما نظم معه التبادل التجاري والعلاقات السياسية وتعين في صنعاء قنصل تجاري سوفييتي لادارة العمليات التجارية •

وشهدت التجارة السوفييتية في اليمن خلال السنوات العشر التالية انتعاشا كبيرا واستطاعت البضائع السوفييتية ان تنافس البضائع للدول الاخرى وتتجاوزها •

---

(٥٤) راجع نصها :
Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East Vol. II. pp. 177-178 (Princeton - 1956).

(٥٥) سيد مصطفى سالم ـ تكوين اليمن الحديث ص ٣٣٦ (القاهرة ـ ١٩٦٣) •

واحتلت تجارة البن اليماني المكانة الاولى في التجارة السوفييتية • واستطاعت « الشركة التجارية الروسية » ان تضارب التجار الآخرين واستولت على معظم الاسواق •

ويذكر نزيه العظم في معرض وصفه للتسهيلات التي قدمتها الشركة الروسية للتجار اليمانيين انه « لما أسست هذه الشركة حول التجار انظارهم نحوها وانصرفوا عن غيرها ولاتأتي سفينة روسية الى الحديدية الا وهي ملأى بشتى البضائع والحاجيات وتعود من الحديدة ملأى بالجلود والبن »(٥٦) •

وصارت البواخر السوفييتية تسير بلا انقطاع من اوديسا الى الخليج العربي عن طريق البحر الاحمر • وأصبحت الحديدة ميناء معروفا للتجار السوفييت حيث تستقبل وتصدر تجارتهم •

وازدهرت التجارة السوفييتية في البلاد السعودية أيضا • وقد امدها الاتحاد السوفييتي بكثير من البضائع واغرق الاسواق بها • وقد عرضت تلك البضائع بأسعار مخفضة مما أدى الى الاقبال على طلبها وعندما واجهت السعودية الازمة المالية الخطيرة على أثر قمع حركة الاخوان سنة ١٩٣٠ قدم الاتحاد السوفييتي بعض المساعدات المالية والعينية • فزود البلاد بالنفط • ونتيجة لتطور العلاقات السوفييتية السعودية زار الامير فيصل وزير الخارجية السعودي موسكو في مايس ١٩٣٢ فرحبت به موسكو ترحيبا حارا والقى كالنين كلمة في حفل استقبال الامير جاء فيها « ••• ان العلاقات التي كانت بين بلدينا على مدى عدد من السنين علاقات ودية جدا صادقة تماما • ولا شك ان زيارتكم لبلادنا هي احدى المظاهر السعيدة للصداقة التي تربط بيننا »(٥٧) •

---

(٥٦) نزيه مؤيد العظم ـ رحلة في بلاد العربية السعودية ج ١ ص ـ ٨٠ (القاهرة ـ مطبعة الحلبي) •

(٥٧) أمين سعيد ـ المصدر السابق ص ٢٠٦ •